الادب الخالد

ما أكثر الادباء اذا عددتهم وما أقل من يبقى منهم اذا تخيرتهم، وما أكثر ما تنتجه العقول والاقلام وما أقل ما يتبقى منه على توالي العصور والاعوام. انظر هذا السيل المتدفق الذي يقذف به الادباء في كل اللغات. ترى ما الذي يبتلعه منه محيط الزمان العظيم فيغرقه فيما يغرق، وما الذي يظل منه طافياً فوق امواجه الهائلة، قائماً كالصخرة رسوخاً أو كالمنارة المضيئة هداية للاجيال المقبلة الى سواء السبيل.

ليس بين الفنون الجميلة فن أوسع باباً من الأدب يلجه كل من خط سطراً وعرف كيف يدير القلم بين انامله، وكل من تمخض ذهنه فولد فكراً مهما كان هزيلا وعرف كيف يعبر عنه. ولكم أريق من مداد على القرطاس، وكم شحذ الفكر، وكم انتج العقل، ولم يلبث الزمان أن فعل فعلته في هذا كله فمحا المعالم وطمس الرسوم، ولم ينج منه الا الصالح القوي الذي قدر أن يقاوم عواصف الاجيال والقرون. ومن الادباء من كان في عصره جهبذاً نحريراً ينسج على غراره ويهتدى بنبراسه فصار اليوم نسياً منسياً. ومنهم من عاش نكرة لايعرفه غير القليل من اصدقائه ومات مغمور الفضل وقد صار اليوم علماً من اعلام الأدب تتداول الالسنة اسمه وتحفظ العقول آثاره.

واذا انظرنا الى ماوصل الينا من منتجات العقل في الأدب وجدناها كلها أو اغلبها مما تمثل الانسانية تمثيلا صحيحاً في عواطفها وشعورها أو مما يعبر عن الانسانية تعبيراً صادقاً. فكم تغزل المتغزلون، وكم رثى الراثون، وكم قص القصاصون، وكم تحدث المتحدثون، فلم يخلد منهم الا من كان صادق الشعور صحيح العاطفة حسن التمثيل ولم يخلد منهم الا الذين عبروا عما تختلج به قلوب الناس وتعتلج به نفوسهم. ولطالما استوقفتنا ابيات من الشعر أو قطع من النثر أو قصة مستطردة لرواية تمثيلية فقلنا: لحى الله هذا الكاتب الكبير كأنه يعبر عن نفوسنا ويتحدث عما في اذهاننا ويمثل طبائعنا من فضائل ونقائص.

وهذا الصدق في التعبير والامانة في التصوير معيار صادق للأدب الخالد. فالانسانية واحدة في كل اجيالها واطوارها. هي واحدة في عواطفها وشعورها، في فضائلها وتقائصها، في خيرها وشرها، في شريف ما تسمو اليه وسافل ما تصدف عنه. والكاتب الخالد هو من عرف هذا كله واجاد تصويره، فكانه فيما ينظم أو ينثر لايعبر عن شعوره وحده، ولا يصور احداً من الناس بل يعبر عن شعور الانسانية ويصور في شخص واحد الانسان بجملته.

وهل لنا أن نضرب الامثلة على هذا الذي تقول، هذا ادبنا العربي لقد خلد امرأ القيس وطرفة بن العبد حتى بلغ الينا شعرهما، وانما اشتهر الواحد منهما بقصيدة او قصيدتين عالج فيها آمال الشباب وروي احاديثه، فاذا هما يصوران حياة الشباب ونزقه. ولقد عاصرهما شعراء كثيرون، وكان في عصرهما من يفضل هؤلاء عليهما ولكن الانسانية على توالى عصورها عرفت كيف تنصفهما. ومن اليوم يذكر علقمة الفحل مثلا وكان معاصراً لامرىء القيس ينازعه الشعر حتى وجد من فضله عليه؟ أما اليوم فعلقمة الفحل يكاد يكون نكرة، وأما امرؤ القيس فهو صاحب المكانة العليا فى الشعر العربي.

وأبو الطيب المتنبي — ومن فى البلاد العربية يجهل اسم ابي الطيب ولا يروي شيئاً من شعره — فما سر ذيوع شهرته وسيرورة شعره على الالسنة؟ أليس لانه لاتكاد تجد حالة نفسية، ولا تكاد تشعر بحزن أو ألم أو حبور الا تبادر الى ذهنك أو جرى على لسانك بيت لأبي الطيب فيما تشعر به؟ واذا تصفح الاديب ديوان المتنبى خرج بماية بيت ونيف تمثلت فيها عواطف الانسانية فى صدق شعور وحسن تصوير وجميل اداء، ناهيك عن قصائده العظيمة المحبوكة روائع وبدائع.

وكم من الشعراء عاصروا أبا الطيب وكم جاء منهم بعده. كان بعض معاصريه ينكرون عليه شاعريته وكان لهم اتباع واشياع اكثر مما كان له، وكانوا ينازعونه ذيوع الصيت ورسوخ القدم، امثال أبي فراس الحمداني وغير ابي فراس. وقد قام بعده شعراء كثيرون كصفي الدين الحلي والشاب الظريف وابن معتوق. فمن يذكر اليوم هؤلاء جميعاً الا اذا ذكرنا تاريخ الادب وتناول الباحثون تسلسل الشعراء؟ ولقد كان ابن الفارض إمام عصره وظل شعره يدرس في الكتاتيب الى سنين مضت ولكنه لم يقو على صدمات الزمان وهو اليوم لولا تصوفه وما نظم فيه لانكر عليه بعضهم مكانته في الشعر!

***

هذه أمثلة من الادب العربي قليلة لان الادب العربي ضيق المجال لم يتناول غير الشعر من فنون الادب. فاذا القينا نظرة على الادب الغربي وجدنا الشواهد جمة لنأخذ فن القصص مثلا، وموضوع القصة في اغلب الاحيان غرامي يقوم على علاقة حبية بين رجل وامراة. وقد وضع من القصص الى يومنا هذا ما لا يحصى عدده. فما هي تلك التي خلدت الى يومنا والتي اذا طالعناها مرة شعرنا بحاجة الى اعادة مطالعتها؟ انها ولاشك تلك التي تصف العلاقات القائمة بين الرجل والمراة على التعميم لابين رجل وامراة على التخصيص، وهي التي تصف عواطف الرجل والمراة لا عواطف رجل وامراة. والعلاقات بين الرجل والمراة والعواطف التي تولدها هذه العلاقات هي تاريخ الانسانية في الصميم من حياتها ومشاعرها. لذالك خلدت قصص على قدم العهد بها مثل « دفنس وخلوة » وزال ذكر قصص اخرى على حداثة العهد بها، وهذه عديدة لاسبيل الى احصائها. اجل، لقد ابتلع النسيان الهائل اكثر القصص التي عاشت كما تعيش الازهار صباح يوم، ثم ذبلت، وزال منها كل اريج عطر. وهناك قصص لم يقدرها ابناء الجيل التي ظهرت فيه حق قدرها ثم انصفتها الاجيال التي اتت بعدها فجعلتها بين خير ما ولدت العقول البشرية. ومن هذه رواية « فيدر »التمثيلية للشاعر الفرنسي « راسين » فقد سقطت في القرن السابع عشر سقوطاً رائعا، ثم مالبثت ان تبوات المكان اللائق بها بين بدائع الفن الخالدة لانها تمثل حب المراة تمثيلا عنيفاً حقيقياً في صدق عاطفة وشدة وله وحنان.

فالشاعر الخالد، والقصصي الخالد، والكاتب الخالد هو اذن من ينظم ويؤلف ويكتب للانسانية جمعاء على اختلاف عصورها وتباين ازمانها، لا من يكتب لعصر معين وبيئة خاصة؟.

(ابولو) صديق شيبوب

الاقامة العامة

تبلغنا بمزيد الاغتباط ان هيأة الوزارة الفرنسوية جددت اخيراً لصاحب المجادة المقيم العام المسيو لوسيان سان ماموريته بالمغرب لمدة ستة اشهر قابلة.

ولا شك أنه خبر يفعم فؤاد المغربي ارتياحاً وبشرا لما يعلمه من شدة احتياج بلاده في هذا الوقت العسير الى عطف وسياسة رجل مقتدر عظيم مثل المسيو سان الذي قد ادى للايالة خدمات ستكتب في صحيفة التاريخ بذهب الاعتبار.

و(المجلة) بعامل الفرح تهني صاحب المجادة بهذا التقرير الجديد راجية له تمام المعونة والقدرة على انجاز بقية اعماله الهامة.